إيليّا رجل إيمان في زمن الجحود

الأب أيوب شهوان
أستاذ مادّة الكتاب المقدّس،
جامعة الروح القدس،
الكسليك

مقدّمة

مهما قلنا عن إيليّا النبيّ الغيور يبقى قليلاً لشدّة غنى شخصيّته، وللدور الحاسم الذي لعبه في خضمّ صعوبات قاهرة ومخاطر جسيمة؛ فهو من الأنبياء الذين تواصل حضورُهم في العهد الجديد بشكل ملفت، كما أيضًا في المسيحيّة من خلال ما نراه في بلادنا من كنائس ومن مزارات ومقامات مكرّسة له، مع ما يواكب ذلك من إكرام، وما نشهده من لجوء أعداد كبيرة جدًّا من المؤمنين والمؤمنات إلى شفاعته. أضف إلى ذلك الكمَّ الكبير والمتنوّعَ جدًّا للأيقونات والرسوم والتماثيل وغيرها التي تُبرِز النبيَّ إيليّا في أوضاع وحالات استلهمها الفنّانون الرسّامون والنحّاتون من النصوص البيبليّة التي حفظت ذكراه، وتكلّمت على شخصيّته وحياته ودوره ومواقفه وأقواله، وكلّها تزيّنت بالإيمان وتقوَّتْ به.

هناك أمر آخر، تواصل أيضًا في الكنيسة بالإلهام الذي أعطاه لبعض المؤسّسات الرهبانيّة، مثل الكرمليّين والكرمليّات[1] وغيرهم، الذين استلهموا روح إيليّا النبيّ وأدرجوها في روحانيّة قوانينهم كما في حياتهم الرهبانيّة، لشدّة ما في حياة هذا الرجل من مُثُلٍ هامّة جدًّا للحياة المسيحيّة الرهبانيّة، من حيث الالتزامُ الثابت بالإيمان بالله وبما يريده، ومن حيث أيضًا السلوكُ الرهبانيّ، والتجرّدُ، والتقشّفُ، وعيشُ الفقر والاكتفاءُ بالقليل، والطاعةُ، والعفّةُ، وكلُّ ما تتطلّبه المسيرة الرهبانيّة.

---

١ تقول أديت شتاين في كلامها على روحانيّة الكرمل وفي تبيان فاعليّة إيليّا في نفوس مَن يستلهمون روحه ما يلي: «نحن الذين نعيش في الكرمل، ونستدعي أبانا القدّيس إيليا في صلواتنا اليوميّة، نعلم بأنّه ليس بالنسبة إلينا صورة ملتبسة من ماضٍ سحيق، لأنّ روحه يستمرّ عاملاً فينا عبر تقليد حيّ، ويطبع حياتنا بطابعه»
(Edith Stein, *La spiritualité du Carmel*, « Ouest France » ,1936). لقد قرأت أديت شتاين قوانين الكرمل الرهبانيّة، فتبيّنت التناغم العميق القائم بين طريقة العيش التي تقترحها القوانين المذكورة، وطريقة إيليّا النبيّ القدّي، فربطت هكذا بين نبيّ القرن التاسع ق. م. وبين القوانين الكرمليّة التي وُضِعَت في القرن الثاني عشر ب. م.، وبين تريزيا الأفيليّة في القرن السادس عشر. إنّنا، في الواقع، أمام تقليد حيّ، وروح مشترك، و«الحقيقة» ذاتها.

ولكنّ الأهمَ هو **تواصل حضور إيليّا النبيّ في بعض نصوص العهد الجديد**، خاصّةً في الأناجيل الأربعة[٢]، ومرّة في رسالة القدّيس بولس إلى أهل روما[٣]، وأخرى في رسالة القدّيس يعقوب[٤]، وفي ذلك إبرازٌ لعظمة إيمانه، من جهة، وصموده وثباته في هذا الإيمان، من جهة ثانية. لكن لماذا يَرِدُ ذكرُه على لسان يسوع[٥]، كما أيضًا على لسان الناس إلى هذا الحدّ؟ لماذا يحضر إلى جانب موسى في حدث تجلّي الربّ يسوع على الجبل[٦]؟ لماذا كلُّ هذا الحضور القويّ لهذا الرجل الذي عاش قبل ألفَين وثمانمائة أو تسعمائة سنة؟

تاريخيًّا يمكن أن نجد أجوبة على هذه التساؤلات، لكنّ الجواب الأبسط والأوضح والأكثر إقناعًا هو أنّ **إيليّا** قد **دعاه الله**، و**أقامه نبيًّا** ليردّ بني إسرائيل إلى الربّ وإلى طاعته، إذ إنّ الأمانةَ المفترَضَةَ تجاه الربّ وشريعتِه التي وهبها لهم دستورَ حياة، كانت تتعرّض للخلل الكبير[٧]، إذ كانت قد تسلّلت فكرةُ **التوفيق بين الاعتراف بالله والاعتراف بآلهةٍ غريبة**، ولإيزابلَ في هذا دورٌ شابهتْ فيه دورَ مَن وَسْوَسَتْ لحوّاء، فأكلتْ هذه وأعطتْ شريكَ حياتِها المغفَّلَ والمخدوعَ بما زيّنتْه له فأكل، فوقعتِ المعصيةُ المميتة[٨]؛ لقد استتبع ذلك كَمٌّ لا حدودَ له من **الانحرافات** المتنوّعة على العديد من الأصعدة وبين مختلف الطبقات، فشاب الكثيرُ من التقهقرِ المميتِ الإيمانَ، والعبادةَ، والسلوكَ، **وَوَقَعَ الظلمُ** تجاه الله، وتجاه القريب، ظلمٌ ملأ الأرض[٩]، فكان لا بدَّ من مؤمن استثنائيّ صِنْوَ إيليّا وعلى طرازه ليعيد بني إسرائيل إلى الطريق القويم، **إلى الإيمان**، لِنَقُلْ إلى الله وإلى

٢ مت ٣: ٤؛ ١٧: ١-٨؛ ١١: ١٤؛ ١٧: ٩-١٣؛ ١٦: ١٤؛ مر ٩: ١-٩؛ لو ١: ١٧؛ ٤: ٢٦-٢٧؛ ٩: ٨؛ ٩: ٢٨-٣٦؛ ٩: ٥٤؛ يو ١: ٢١، ٢٥.

٣ رو ١١: ٢-٤.

٤ يع ٥: ١٧-١٨.

٥ مت ١٧: ٩-١٣.

٦ لو ٩: ٢٨-٣٦. رج:

Sylvain CARIOU-CHARTON, « La conversation sur la montagne », in *Christus*, t. 51, no 203 (2004) 292-300.

٧ «لم أُعَكِّرْ صَفْوَ إِسْرائيلَ أَنا، بل أنت وبيتُ أبيكَ بتَركِكُم وصايا الرّبِّ وسَيرِكم وراءَ البعل» (١ مل ١٨: ١٨).

٨ أنظر تك ٣: ١٦-١٧.

٩ «ومَلَكَ أَحَزْيا بنُ أَحآبُ على إِسْرائيلَ في السّامرة...، وصَنعَ الشّرّ في عَينَيِ الرّبّ، وسارَ في طَريق أبيه وطَريقَ أُمِّه وفي طَريقَ يارُبْعامَ بنَ نَباطَ الّذي جَعَلَ إِسْرائيلَ يَخطَأ. ٥٤ فعَبَدَ البَعلَ وسَجَدَ لَه، واسخَطَ الرّبّ، إِلهَ إِسْرائيل، على حَسَبِ كُلِّ ما صَنعَ أَبوه» (١ مل ٢٢ : ٥٢ — ٥٤).

مشروعه الخلاصيّ.

لا نعجب بالتالي إذا رأينا العديد من آباء الكنيسة، كيعقوب السروجيّ[١٠] وغيره عديدون يمتدحون نبيّ الله هذا، ويتوسّعون في الكلام حول شخصه وسيرته ودوره وقدوته.

سنعرض في ما يلي أهمّ الجوانب الإيمانيّة التي تجلّت في حياة هذا النبيّ العظيم، وهي التالية:

١ - واقع شعب الله بعد انقسام المملكة

إذا عدنا إلى القرن التاسع ق. م.، واستعرضنا أحوال المملكة الشماليّة، وعاصمتُها السامرة، يتبيّن لنا أنّ الوضع السياسيَّ كان مؤسفًا، وما هذا سوى نتيجة حتميّةٍ لوضعٍ دينيٍّ أشدّ سوءًا تمثّل **بالنزعة الدينيّة التوفيقيّة** التي تعني في ما تعني الاعتراف بآلهةٍ أخرى غير يهوه، الأمر الذي شكّل عصيانًا جسيمًا لوصيّة الله الأولى القائلة: «أنا هو الربّ إلهك، لا يكن لك إله غيري»[١١]. إنّ المظالم التي واجهها إيليّا، ومنها الظلم اللاحق بنابوت اليزرعيليّ[١٢]، لم تكن سوى امتدادٍ طبيعيٍّ للعصيان المذكور[١٣].

في أواخر القرن الحادي عشر وأوائل القرن العاشر، كان داود قد أسّس عاصمةً سياسيّة مدنيّة ودينيّة للملكة، هي أورشليم[١٤]، والهدف كان تعزيزَ الوحدة في المملكة بين قبائل الشمال[١٥]، وعددها تسعة ونصف، وقبائل الجنوب، وعددها اثنتان ونصف، ونجح في ذلك إلى حدّ كبير، وواصل المهمّة بعده ابنه سليمان. لكن بعد موت هذا الأخير سنة ٩٣٣/٩٣٥

---

١٠ بولس الفغالي، **يعقوب السروجيّ، عظات حول النبيّ إيليّا**، منشورات الجامعة الأنطونيّة، ينابيع الإيمان، ٥، جونية - لبنان، ٢٠٠٣.

١١ «أَنا الرَّبُّ إِلهُكَ الَّذي أَخرجَكَ مِن أَرضِ مصرَ، مِن دارِ العُبودِيَّة. لا يَكُنْ لكَ آلهةٌ أُخرى تُجاهي» (خر ٢٠: ٢-٣)؛ «أنا الرَّب إِلهُكَ الَّذي أَخرَجَكَ مِن أَرضِ مصرَ، من دارِ العُبودِيَّة. لا يَكُنْ لكَ آلهةٌ أُخرى تُجاهي» (تث ٥: ٦-٧).

١٢ رج ١ مل ٢١.

١٣ الفغالي بولس، «إيليّا التشبيّ»، في: **المحيط الجامع في الكتاب المقدّس والشرق القديم**، المكتبة البولسيّة، جونيه - لبنان، ٢٠٠٣، ص ٢٠٩-٢١٠.

١٤ ١ أخ ١١.

١٥ ١ أخ ١٢.

ق. م.، حصل انقسام في المملكة الواحدة كان وراءَه ابناه ياربعام ورحبعام[١٦]، «وكلّ بيت ينقسم على ذاته يخرب»[١٧]، ولا يحصل هذا إلّا عندما يكون هناك ابتعاد عن الله، ومخالفة لوصاياه، وانجراف وراء الرغبات والشهوات المحاربة في الأفراد وفي المجتمعات، فلا يبقى مكان لروح الله، الذي يحكّم ويرشد إلى الحقّ ويقدّس، فيتدّنى الشعور بحضور الله، ويتناقص روح العبادة الحقّة.

حصل الانقسام إذًا، وصار هناك مملكتان، واحدة في الشمال، وعاصمتها السامرة، حيث تمّ تشييد معبد على جبل جريزيم، وأخرى في الجنوب وعاصمتها أورشليم حيث الهيكل وفيه قدس الأقداس، حيث كان تابوت العهد الذي يمثّل حضور الله في وسط شعبه، ومنه ينال بنو إسرائيل البركات، وإلى هناك يحجّ الجميع سنويًّا في أعياد الفصح والعنصرة والمظالّ، منشدين مزامير المراقي ١٢٠-١٣٤ وغيرها، والهدف هو الحصول على المغفرة والتطهّر والتقرّب من الله، فيعودون إلى بيوتهم مزوّدين بالبركة من قدس الأقداس، وبحياة وعيش متجدّدَين لإيمانهم.

لم تكن الأمانة لعهد الربّ أيّامَ إيليّا على ما يرام؛ فالجحود، والتفسّخ، والتقسّم، والتناحر، والبغض، والعداوات، والمشادّات، والمظالم، والصعوبات الاقتصاديّة خاصّةً في الجنوب، مقابل الرخاء لدى أهل الشمال، كلّ هذا أدّى إلى تدنّي الروح الذي ينبغي أن يميّز شعب الله الذي دُعي لكي يكون بركةً لكثيرين، كما قال الله لإبراهيم: «بك وبنسلك تتبارك كلّ الأمم»[١٨]. لكن كيف يمكن أن تتبارك بهم كلّ الأمم، في حين أنّهم كانوا عائشين بطريقة غير أمينة، وبالتالي غير مرضيّة للربّ، ولا تليق بكرامة الله الذي اختارهم وأحبّهم. كلّ هذا أدّى إلى تدهور الأوضاع الاجتماعيّة، كما هي حال الأوضاع الدينيّة، فتضاعفت المعاصي، والسبب كلّ السبب هو نقض العهد، وعدم حفظ وصايا الله العشر[١٩]، وما يستتبعها في ما يتعلّق بوحدانيّة الله وحصريّة عبادته[٢٠].

٢ - إيليّا في مشروع الله الخلاصيّ

١٦ ١ مل ١٢.

١٧ مت ١٢: ٢٥؛ لو ١١: ١٧.

١٨ تك ٢٢: ١٨: «وَيتَبارَكُ بِنَسلِكَ جَميعُ أُمَمِ الأَرض، لَأَنَّكَ سَمِعتَ قَولي».

١٩ ١ مل ١٨: ١٩: «لم أُعَكِّرْ صَفْوَ إِسْرائيلَ أَنا، بل أنت وبَيتُ أبيكَ بتَركِكُم وَصايا الرّبِّ وسَيرِكم وَراءَ البَعْل».

٢٠ «لا يَكُنْ لَكَ آلِهَةٌ أُخْرى تُجاهي» (خر ٢٠: ٣ ؛ رج تث ٥: ٦-٧).

كان الهمّ الأكبرَ عند إيليّا مسألة الإيمانِ بالله وعبادتِه وطاعتِه في مملكة الشمال. هناك سمح آحاب، وبإغواء من إيزابل زوجته وبتحريض منها، بإدخال آلهةٍ أخرى، وبممارسة عبادات تتنافى والعبادة الحقّة، فكانت بالتالي المعصية التي جرّت الكثير غيرها. لقد أدخل بنو إسرائيل منافسًا لله، وهو البعل، إله المطر، الذي كانوا لأجل ذلك يكرّمونه، كضمانة من أجل حصولهم على شتاء كاف يؤمّن لهم جني المحاصيل الزراعيّة، فلا يتعرّضون بالتالي للقحط والعطش، بل تتأمّن لهم مواسم القمح، والزيتون، والعنب، وسواها. أدخلت الملكةُ إيزابلُ الفينيقيّةُ الأصل فكرةَ تكريمِ البعلِ بتأكيدها أنّ آلهة صور هي أكثر فعاليّة من إله إسرائيل، والبرهان هو أنّ أهل صور أكثر غنًى من أهل أيّة مملكة أخرى، ممّا دفع أحد الأنبياء إلى القول بأنّ ترابَ الشوارع في صور ذهبٌ[٢١]، إلى حدّ القول بأنّ عِمْلَةَ صور في القرن الخامس ق. م. كانت دولارَ ذاك الزمان!

لقد شكّل عدم حفظ الوصيّة الأولى من وصايا الله العشر مدخلاً إلى مخالفة الوصايا التسع الباقية، وتحديدًا إلى الكفر، والبعد، والتراخي، وعيش حياة أغضبت الله. إنّ الذي لا يخاف الله يقترف ما يشاء من الخطايا، لأنّه، يشبه الجاهل الذي «يقول في قلبه: لا إله»[٢٢].

بعد انقسام المملكة في سنة ٩٣٥ ق. م.، وصولاً إلى القرن التاسع، كان هذا الواقع سائدًا في إسرائيل وحتّى أيّام إيليّا. لهذا السبب جاء إيليّا ليردَّ «قلوبَ الأبناء إلى آبائهم، والجميعَ إلى الله»[٢٣]، ليردّ الناس عن انحرافهم الأخلاقيّ، علمًا أنّ الانحراف الجوهريّ والهدّام كان ويبقى الانحرافَ عن الإيمان بالله وعن محبّته وطاعته.

لا ابتعاد عن الله ولا انحراف إلاّ عندما تتناقص المعرفة أو تزول، لذلك سيهتمّ يسوع، كما يفيدنا إنجيل يوحنّا، بأن يعرّف تلاميذه بالآب وبكلّ ما ينبغي أن يعرفوه لكي يرتقوا إلى مستوى الإيمان. **لقد ابتعد بنو إسرائيل بعْدًا رهيبًا عن المعرفة، فابتعدوا بالفعل ذاته عن الإيمان وعن محبّة الله**[٢٤].

٢١ «وقَدْ بَنَتْ صُورُ حصنًا لنفْسِها، وكَوَّمَتِ الفضَّةَ كَالتُّرابِ، وَالذَّهبَ كَطِينِ الأَسواقِ» (زك ٩: ٣).

٢٢ مز ١٤: ١: «قالَ الجاهِلُ في قلبه: «ليسَ إله».

٢٣ «ويَسيرُ أَمامَه وفيهِ رُوحُ إيليَّا وَقُوَّتُه، ليَعطِفَ بقُلوبِ الآباءِ على الأَبناء» (لو ١: ١٧).

٢٤ "ويَزدادُ الإثم، فتَفتُرُ المحَبَّةُ في أَكثرِ النَّاس" (مت ٢٤: ١٢).

٣ - إيليّا والجحود القاتل

موضوع إيليّا عميق وهامٌّ جدًّا؛ نحن معتادون أن نرى إيليّا وبيده سيف، يقطع به رؤوس كهنة البعل[٢٥]، أو يُجري معجزة إحياء ابن الأرملة[٢٦]، إلخ؛ لكن وراء كلّ هذا سؤال واحد: أين إلهكم، يا بني إسرائيل؟ من هو الإله الذي تعبدون؟ الجواب مخيف: «لا إله!». الإله الذي عرّف بذاته وقال: «أَنا أكون مَن أكون» (אֶהְיֶה אֲשֶׁר אֶהְיֶה) لم يعد يعني لهم الكثير! وما الكلام على إقامة عجلين من الذهب[٢٧] سوى للدلالة على الكفر بالله وإدارة الظهر له. عندما كان موسى على جبل سيناء، وتأخّر نزوله، صنع هارون، وتحت ضغط الشعب، عجلاً من ذهب، وراحوا يعبدونه[٢٨]، بعدما كان الله قد خلّصهم من العبوديّة في مصر. إنّ ما فعله بنو إسرائيل أيّام إيليّا هو مماثل لذاك الجحود الذي اقترفه الشعب ذاته في الصحراء.

إنّ الذين كتبوا قصّة إيليّا هدفوا إلى معالجة موضوع أساسيّ في نظرهم، فانطلقوا من حالة الكفر والجحود هذه التي كانت متفشّيةً في أيّامهم. في سفر الملوك الأوّل، وبدءًا من الفصل ١٧، لا كلام عن أصل إيليّا، لا عن أبيه ولا عن أمّه، ولا عن مكان مولده ونشأته. لقد ظهر إيليّا مباشرةً بعد الأخبار السيّئة عن آحاب والملوك، وبعد وصف أوضاع البلاد المتدهورة دينيًّا وروحيًّا وأخلاقيًّا؛ والأسوأ هو ما أورده هذا الفصل في بدايته عن القضاة وعن مظالمهم المقترفة بحقّ الضعفاء والمساكين. بعد إيليّا، سيأتي عاموس في القرن الثامن، وسيهاجم هو أيضًا القضاة الظالمين وأمثالهم. إنّ الظلم هو نتيجة حتميّة لفقدان

---

٢٥ "فقالَ لهم إيليّا: إقبِضوا على أنبياء البعلِ ولا يُفلِتْ منهم أحَد؛ فقَبَضوا عليهم، فأنزَلَهم إيليّا إلى نهرِ قيشون وذبحَهم هناكَ" (١ مل ١٨: ٤٠).

٢٦ " فقالَ لَها: "أَعطِني ابنَكِ". وأَخَذَه مِن حضنِها وأَصعَدَه إلى العلّيةِ الّتي هو نازلٌ بها وأضجَعَه على سريرِه. وصَرَخ إلى الرّبِّ وقال: "أَيُّها الرّبّ إلهي، أَإلى الأرملةِ الّتي أَنا نازلٌ بها تُسيءُ أيضًا وتُميتُ ابنَها؟". وانبَسَطَ على الولدِ ثلاثَ مرّاتٍ وصَرَخ إلى الرّبِّ وقال: "أَيُّها الرّبُّ إلهي، لِتَعُدْ روحُ الولدِ إلى جَوفِه". فسَمِعَ الرّبُّ لصوتِ إيليّا وعادَت روحُ الولدِ إلى جَوفِه وعادَ إلى الحياة. فأَخَذَ إيليّا الولدَ وأنزَلَه مِنَ العلّيّةِ إلى البيت، وسَلّمَه إلى أُمِّه وقالَ إيليّا: "أنظُري، ابنُكِ حَيّ". فقالَتِ المَرأةُ لإيليّا: "الآن عَلِمتُ أَنّكَ رَجُلُ الله، وأَنّ كلامَ الرّبِّ في فَمِكَ حَقّ" (١ مل ١٧: ١٩-٢٣).

٢٧ "فاستشَارَ المَلِكُ وعَمِلَ عِجلَينِ مِنَ الذّهب" (١ مل ١٢: ٢٨).

٢٨ "فسرعانَ ما حادوا عنِ الطَّريقِ الَّذي أَمَرتُهم به، وصَنَعوا لَأَنفُسِهم عِجْلًا مسبوكًا، فسَجَدوا له وذَبَحوا له وقالوا: هذه آلهتُكَ، يا إسرائيل، الَّتي أَصعَدَتكَ مِن أَرضِ مِصر" (خر ٣٢: ٨).

المعرفة، الأمر الذي يؤدّي إلى فقدان الإيمان، ومن ثمّ إلى ارتكاب المظالم. مَن يعرف الحقّ ويسكت عن الظلم يكون شريكًا في الظلم. ومن لم تكن عنده الجرأة والشجاعة للدفاع عن العدل والحقّ، هو فاقد للمعرفة والإيمان، ولا يخاف الله.

هذه الصور السيّئة عن الملوك في إسرائيل أيّام إيليّا وقبله، سمحت للكاتب أن يضع أمام أعيننا وصفًا لواقع شعب الله المؤلم، الذي نسي الوصيّة الإلهيّة التالية: «كونوا قدّيسين لأنّي أنا قدّوس»[٢٩].

يقال عن إيليّا أنّه مثل النار[٣٠]، وأنّه غيور[٣١]، ورجل التقشّف والزهد، والضعف والقوّة في آنٍ معًا، ولكن من أهمّ صفات إيليّا أنّه **رجل الإيمان**.

لكن لماذا التركيز على أنّ إيليّا هو أوّلاً رجل إيمان؟

لأنّ كاتب سيرته جاء يضع أمامنا صورة معاكسة لوضع بني إسرائيل في ذاك الزمان. كيف كانت صورة بني إسرائيل؟ ما كان الانطباع الذي يمكن أن نكوّنه عنهم؟ هم أساسًا رجال الله الأنبياء القدّيسون الذين لهم عيون بها يُبصرون، وآذان بها يسمعون، ويعرفون بالتالي أن يميّزوا بين الحقّ والباطل، لكن بدا واضحًا أنّ شعب الله لم يكن راسخًا في إيمانه، فجاء الكاتب يضع أمام أعيننا صورة أخرى معاكسة، صورة **رجل إيمان**، هو إيليّا، مقابل شعبٍ هو تحديدًا شعب الله، بَعُدَ كثيرًا عن الإيمان. يختصر إيليّا إذًا في شخصه، ومنذ البدء، ما ينبغي أن يكون عليه المؤمن العبريّ. لا يقدر أحد أن يكون منتميًا إلى شعب الله، وفي الوقت عينه لا يعبد الله، ولا يؤمن به، ولا يسلك سلوكًا سليمًا وفق شريعته. هكذا يضحي إيليّا صورة عن إبراهيم الذي معه بدأ شعب جديد يؤمن بالله، وصورة عن نوح الذي به تبدأ بشريّة جديدة تؤمن بالله، وصورة عن نسل شيت الذي راح يدعو باسم الله[٣٢].

يريد إيليّا أن يمثّل انطلاقة شعب جديد يؤمن بأنّ الله هو إلهه لا سواه، لا إله إلاّ هو، لا دخيل عليه ولا شريك له؛ ولكنّ هذه الأمور التي نتكلّم عليها كمبدأ، يختصرها شخص إيليّا، الذي يريد الكاتب أن يرينا إيّاها بلوحة معبّرة الواحدة تلو الأخرى.

---

٢٩ "إنِّي أَنا الرَّبُّ إِلهُكم، فتَقَدَّسوا وكونوا قدِّيسين، فإِنّي أَنا قُدُّوس" (لا ١١: ٤٤).

٣٠ "وقامَ إيليّا النَّبيُّ كالنّار، وتَوقَّدَ كلامُه كالمشعل" (سي ٤٨: ١).

٣١ "وهو الّذي جَلَبَ عليهمَ الجوع، وبغيرتِه جَعَلَهم نَفرًا قليلًا" (سي ٤٨: ٢).

٣٢ "ولِشِيتٍ أَيضًا وُلِدَ ابنٌ وسَمَّاه أَنوش. حينئِذٍ بَدَأَ النَّاسُ يَدعونَ باسمِ الرَّبّ" (تك ٤: ٢٦).

٤ - إيليّا يحرّك الإيمان بمواقفه

من أسهل الوسائل وأجملها التي تَعْلَقُ في الذهن ولا تُنْتَسَى هي الرواية، هو الخبر، ولكن أيضًا المثل. يضع الكاتب أمام أعيننا أخبارًا، منها نستنتج حالةَ بني إسرائيل من مختلف وجوهها، ووجهَ إيليّا المُطِلَّ بجوانبه كلّها؛ هذا الرجل المميّز هو الذي سيعطي الصورة عن كيفيّة وجوب أن يكون من ينتمي إلى شعب الله.

إنّ مَن يقرأ ما كُتِب عن إيليّا وعن بني إسرائيل، يجد ذاتَه أمام نوع من الحكمة التعليميّة: شعب إسرائيل موضوعٌ أمام خيارين، وعليه أن يقرّر، ولا يمكنه أن يختار إلاّ الأفضل، ولن يختار الأفضل إلاّ إذا كان مزيّنًا بالحكمة؛ فإمّا أن يختار آحاب وإيزابل السالبَين أرض نابوت اليزرعيليّ وقاتِلَي هذا الأخير، والأنبياءَ الكذبةَ المضلِّلين والانتفاعيّين، والكهنةَ الاستغلاليّين لخدمتهم في هيكل الربّ[٣٣]، مع سائر الذين يسيرون في ركبهم، وإمّا أن يختار ما اختاره إيليّا النبيّ، بالرغم ممّا يستتبع ذلك من مضايقات ومواجهات واضطهاد وآلام تُبرزُها أناشيد عبد يهوه المتألِّم بوضوحٍ مُعبِّرٍ جدًّا، وببلاغةٍ ولا أروع! لكنّنا نطرح السؤال في هذا السياق: مَن يستطيع أن يختار عادةً؟ الجوابُ سهلٌ وفي متناول اليد: مَن له عينان ويرى يُحسن الاختيار، أمّا مَن كان على عينيه برقعٌ فلن يتمكّن من أن يميّز ويختار.

مَن يقرأ قصص إيليّا والملوكِ والمجتمعِ في أيّامه، لا يمكنه إلاّ أن يتحمّس لإيليّا؛ وحده الأحمق أو الجاهلُ يقف ضدّ إيليّا، ويختار الطريقَ الرحبَ المؤدّي إلى الهلاك، أمّا الحكيم الفطن فلا يمكنه إلاّ أن يختار وجه إيليّا. هذه القصص إذًا المتعلّقة بإيليّا، وبكلّ ما حدث معه، وبما قيل عنه، هي بمثابة كتاب تعليميّ حكميّ من الطراز الأوّل. ولا بدّ أن نضيف أيضًا أنّ الفصول التي تفيدنا عن إيليّا وما أحاط به هي نوعٌ من الكلام النبويّ، بإمكاننا أن نوجزه بما يلي: إن سار بنو إسرائيل في إثر آحاب وإيزابل ومن معهما، فأنّهم إلى الهلاك ذاهبون؛ وإن ساروا على خطى إيليّا فأبناء الخلاص يكونون. في الواقع، اعتاد الأنبياء أن يضعوا بني إسرائيل أمام هذين الخيارين، ويُتبِعون ذلك بتهديدٍ ووعيد، من جهة، وبوعدٍ بالخلاص، من جهة أخرى. إذًا بهذه العيون التي فيها الشموليّة، نقرأ هذه النصوص

٣٣ رج أيوب شهوان، "توبيخ ملاخي للكهنة"، مجلّة بيبليا ٤٥ (٢٠٠٩) ٣٧-٥٧.

الرائعة ذات الآفاق الواسعة التي تصبّ كلّها في نقطة محوريّة واحدة، ألا وهي: إمّا مع الله وإمّا لا! سيختار يسوع أناسًا يسيرون معه في الطريق التي توصل إلى الله.

عند تأمّلنا في حياة إيليّا، علينا أن نتبيّن كلّ الإطار التاريخيّ، الذي يتضمّن وصفًا للحالة الإيمانيّة، لحالة المعرفة، لحالة السلوك، لنوعيّة العبادة، للمجريات القانونيّة القضائيّة في المحاكم، للمجتمع بطبقاته، كلّ ذلك يساعدنا على أن نفهم سببَ تَلَفُّظِ إيليّا النبيّ بما فاه به من كلام، والدافع للقيام بهذا أو ذاك من الأفعال، وعلى أن نتَبَيَّنَ أنّنا أمام عمليّة عظيمة تعليميّة، توصل آخر الأمر إلى الله.

يدخلنا ما سبق في موضوع إيمان إيليّا، المبنيّ على الالتزام بالوصيّة الأولى من وصايا الله العشر: «أنا هو الربّ إلهك لا يكن لك إله غيري»، وعلى القاعدة لعيش هذه الوصيّة، المعبَّر عنها في شروط العهد المتضمَّنَة في خر ١٩-٢٤، وهكذا نستطيع أن نفهم لماذا هذا الرجل هو فعلاً قدوةٌ أمام ناظرينا، ليس فقط في غيرته على ما هو لله والتي هي كالنار الآكلة، ودفاعه عن الحقّ ضدّ الظالمين ولو كانوا ملوكًا، وبجرأته التي لا يتزيّن بها سوى مَن كان مملوءًا من روح الله، بل خاصّةً بكونه مثالاً حاسمًا وفعّالاً في الإيمان.

٥ - لوحات إيمان في مسيرة إيليّا ورسالته

بدايةً، لا بدّ من تنقية صورة إيليّا العالقة في الأذهان، إيليّا حامل السيف، أو الذي يُهلِك كهنةَ البعل بقطْعِ رؤوسهم. إنّ لهذه الصور الكثيرَ من البعد المادّيّ الذي لا يعبّر عن حقيقة إيليّا السامية؛ بالمقابل، هناك صور وأيقونات تبرزه يصغي إلى صوت الله، أو تقوته الغربان (أو «العربان»، أي «العرب»)، أو في حالة صلاة على جبل حوريب[٣٤]، أو ملتجئًا إلى شرقيّ الأردنّ، أو إلى صرفت صيدا، في جنوب لبنان، مع الإشارة إلى أنّ الأماكن الثلاثة هي خارج أرض الميعاد، أي ليست الأرض التي يتواجد عليها بنو إسرائيل، بل شعوب أخرى تُعتَبَر وثنيّة. لكن ما معنى لجوئه إلى هناك وما هي أبعاده؟ كان بنو إسرائيل يعتقدون أنّ الله موجود فقط في أرض إسرائيل، مع هذا فإنّ إيليّا المؤمن بالله قد فرّ من وجه مَن كان يهدّده بالموت إلى خارج أرض إسرائيل حيث وجد الأمان لدى شعوب لا تعرف

34 R. A. CARLSON, « Élie À l'Horeb », in *Vetus Testamentum*, 19, no 4, (1969) 416-439.

الربّ، وحيث أيضًا خاطبه الله وشجّعه وقوّاه؛ هذه هي الصوَر التي ينبغي أن تبقى محفورةً في الأذهان، التي تعني أنّ إيليّا كان يؤمن بأنّ الله هو موجود في أيّ مكان.

إيليّا النبيّ المؤمن حقيقة تاريخيّة، وهذا ما عمل على صياغته بطريقة مؤثّرة وفاعلة مَن كتب روايته، معتمدًا على العناصر التاريخيّة التي وجدها، حتّى يتمكن من أن يقدّم لنا هذه الصورة الدينيّة والإنسانيّة والاجتماعيّة الرائعة عنه وعن مجتمعه، والتي يعرفها جيّدًا العديد من المؤمنين لشدّة إجلالهم لإيليّا، الأمر الذي يبرّر لجوءَهم إلى شفاعته.

ما هي اللوحات التي من خلالها نستطيع أن نتبيّن وجهَ إيليّا المؤمن؟

١/٥ - التجرّد والفقر

عاش إيليّا فقيرًا في المسكن والمأكل والملبس، وعلى خطاه سيعيش يوحنّا المعمدان، وبَعْدَهُما يسوع المسيح ربّنا بالذات، حيث تَمَيَّزَ الثلاثةُ بالتجرّد والفقر[٣٥]، وهذه النقطة هي أساسيّة في حياة مَن يُرسِلُه الله؛ فلقد ظهر وكان لباس يوحنّا المعمدان لباسَ أفقر الفقراء وطعامه كطعامهم[٣٦]؛ وسيقول الربُّ يسوع في هذا السياق: «ليس لابن الإنسان مكان يسند إليه رأسه»[٣٧]، وسيوصي تلاميذه قائلًا: «لا تحملوا كيسًا ولا مزودًا ولا عصا، والفاعل يستحقّ أجرته» (لو ١٠: ٤). عاش المعمدان في حالة زهد ونسك بلغ فيها الحدّ الأقصى، لا يأكل سوى من منتوج البَرّ، عسلاً وجرادًا (مر ١: ٦)؛ إنّه التجرّد المطلق والفائق. نحن أمام كلمتَي «التَرْك» و«التخلّي»: ترْك الغنى المادّيّ من أجل عيش الفقر الفعليّ؛ لكن كيف يستطيع المرء أن يتخلّى إلى هذا الحدّ؟ يتخاصم الناس عادةً من أجل المال ومن أجل المقتنيات؛ على قطعة أرض يتخاصمون، على مسكن يتقاضَون أو يتباغضون. لذا لا يستطيع أن يتخلّى ويتجرّد إلاّ من كان مدركًا في أعماقه أنّ الله هو غناه. قال يسوع:

35 Christophe PICHON, « Un parallèle entre Jésus, Jean-Baptiste et Élie », in *Revue des Sciences religieuses*, 82, n° 4, (2008) 497-516.

٣٦ " وكانَ يوحنَّا يَلبَسُ وَبَرَ الإبِل، وزُنَّارًا مِن جِلْدٍ حَولَ وَسَطِه. وكانَ يأكُلُ الجرادَ والعسلَ البرِّيّ" (مر ١: ٦).

٣٧ "فقالَ له يسوع: "إنَّ للثَّعالبِ، أَوجِرة، ولطيورِ السَّماءِ أَوكارًا، وأَمَّا ابنُ الإنسان فَلَيسَ له ما يَضَعُ عليهِ رأسَه" (مت ٨: ٢٠).

«أطلبوا أوّلاً ملكوت الله وبرّه والباقي يزاد»[٣٨]. الأساس هو إذًا «ملكوت الله وبرّه»؛ هذا ما عاشه إيليّا النبيّ، لكن كيف تمكّن من أن يعيشه؟ كيف استطاع أن يتخلّى؟ هناك تحدٍّ ! إذا قال أحدنا لآخَر: أعطني خاتمك الذهبيّ، أو هذه السلسلة الذهبيّة، فهل يعطيه إيّاها؟ كلاّ، لأنّه سدّد ثمنها غاليًا، لذلك ليس التجرّد بالأمر السهل. من يوافق على على العطاء؟ الذي يرى أنّ مَن أمامه هو الأهمّ وليس الذهب؛ ولأنّه يحبّه، يتنازل له؛ لكي يصل أحدٌ ما إلى يعيش في الفقر، ويقبل أن يتخلّى ويتجرّد، يكون قلبه قد أصبح مملوءًا من حضور الله. لكن كيف يمتلئ قلب الإنسان من حضور الله ؟ إنّ السير على خطى إيليّا يوصل إلى هذه الحالة. لا أحد يستطيع أن يغتني من الله إلاّ إذا ملأه الله من غناه، وليس هو مَن يغتني بل هو الله مَن يُغني؛ لكنّ الله لا يُغني إلاّ إذا كان قلبه مؤمنًا به ومتعلّقًا به؛ الإيمان هو الذي يجعل الله يأتي ويسكن في هيكله، هيكل الروح القدس؛ عندها يكرّس المؤمنُ وقتَه كلَّه لله ليصير خاصّتَه، وليس أمواله ومقتنياته فقط؛ يمكنه عندها أن يعيش التجرّد والفقر؛ ومَن لا يعطي وقتًا كافيًا لله لن يكون بمقدوره أن يعيش التجرّدَ والفقر، كما فعل نبيُّ الإيمان إيليّا التشبيّ. لقد اختبر إيليّا الفقرَ لأنّه كان يعرف أن يصلّي. يحسن هنا أن نقارن بين إيليّا وموسى؛ فموسى كان رجل العبادة والصلاة بشكل جليّ؛ ولأنّه كان يصلّي تمكّن من أن يلعب الدور القياديّ في شعبه. إذًا، حياة إيليّا كانت حياةَ صلاة وعبادة، حياةَ رجلٍ مؤمن بالله، لذا نجح في أن يمارس فضائل التخلّي والتجرّد والفقر.

٢/٥ - المعرفة والحكمة

النقطة الثالثة التي تلي التجرّد والشجاعة، المبنيَّين على الإيمان، هي **المعرفة التي تولّد الإيمان، والإيمان الذي يولّد المعرفة**. لا يمكن لأحد أن يتجرّد إذا لم يكن يعرف قيمة عمله ومردوده، ولا يمكن لأحد أن يكون شجاعًا إذا لم يكن يعرف أهمّيّة شجاعته وفائدتها.

من أين تأتي المعرفة؟ هي ليست تحصيلاً بشريًّا بحتًا وحسب، بل هناك ما يتمّمها ويكملها؛ هي **المعرفة الإلهيّة**؛ هذا ما دفع بسليمان إلى الصلاة من أجل اكتسابها، قائلاً: «يا إله الآباء، يا أب الرحمة، هَبْ لي الحكمةَ الجالسةَ مَعَكَ إِلى عرشِكَ، ولا تَنبُذْني

٣٨ " فاطلُبوا أَوَّلًا ملكوتَه وبِرَّه، تُزادوا هذا كُلَّه" (مت ٦: ٣٣).

مِن بين أَبنائِكَ» (حك ٩: ٤). وهكذا صلّى إيليّا قائلاً: «هَبْ لِيَ الآنَ حكمةً ومعرفةً لأَخرُجَ وأَدخُلَ أمام هذا الشّعب، لأَنّه مَنَ الذّي يَستَطيعُ أَن يَحكُمَ شعبَكَ هذا العَظيم؟» (٢ أخ ١: ١٠).

بماذا سيقاتل إيليّا آحابَ وإيزابلَ والكهنةَ والأنبياءَ الكذبة؟ أبالسيف؟ لا، بل بالكلمة، لكن لا كلمة عند من لا يعرف. القابع في الجهل لا يستطيع أن يتفوّه بالكلام على الأمور العظيمة لأنّه جاهل! هو لا يعرف لأنّه غير مؤمن بالله، لا يصلّي ولا يسجد ولا يعرف أن يخاطب الربّ. يربط سفرُ الحكمة المعرفةَ **بروح الله، الذي يهب المعرفة والحكمة**. هذه الأخيرة هي ذات دور عظيم في العمل النبويّ الذي قام به إيليّا وسائر الأنبياء. إنّها **حكمة مبنيّةٌ على الإيمان ونابعة منه**. ولأنّ الإيمان هو نور، فإنّ المنوَّر بالنور الإلهيّ يستطيع أن يكون حكيمًا، كما حصل لإيليّا النبيّ العالِمِ بالله، والعارف معرفةً جيّدةً لإرادته.

٣/٥ - البرّ والقداسة

النقطة الرابعة، المبنيّة على الإيمان في حياة إيليّا، هي القداسة. لا شكّ أنّ فضائل إيليّا التي تكلّمنا عليها، والإصغاء إلى صوت الله، والعيش في رضاه، والتواصل معه، إلخ، كلّها متجذّرة في الإيمان ومتأصّلةٌ فيه، وتوصل آخِرَ الأمر إلى طلّة بهيّة، هي طلّة قداسة.

النبيّ هو إنسانٌ يصغي إلى صوت الله ويشاهد مجدَ الله. كان إيليّا يتمتّع بهذه النعمة العظيمة التي وهبه إيّاها الله، نعمة أن يرى مجده، وأن يسمع صوته. لا يكلّم الله نبيَّه ولا يريه مجدَه في الساحات والشوارع وعلى مرأى الجماهير ومسمعها، بل في الحلم، لأنّ أعين الناس لا ترى، وآذانهم لا تسمع، فيبقى التدخّل الإلهيّ محصورًا بهذا الرجل الذي يصبح إناء مختارًا، طاهرًا ومقدّسًا، يستطيع أن يتلقّى إلهامات الله. **الصوت الإلهيّ والرؤية الإلهيّة**، هذا ما يجعل النبيّ المؤمن بالله أهلاً أن يكون نبيًّا رائيًا وناطقًا، متمتّعًا بالقدرة للقيام بذلك، فيكون بالفعل ذاته عائشًا في قربى مع الله، وسائرًا في دروب القداسة.

لا تبنى القداسة على المجهود البشريّ فقط، إذ ليس المجهود الخاصّ الذي يقوم به الإنسان هو الذي يجعله قدّيسًا. المجهود البشريّ يرتقي بالإنسان ويعليه، ويجعله

يتسامى، لكن ما يجعله قدّيسًا أو قدّيسة هو الله، الذي، عندما يرى الإنسانَ يصعّد إليه، ينزل هو ويحلّ في قلبه ويأخذ له مسكنًا فيه. إنّ المجهودات البشريّة في هذا السياق من إماتات، وتقشّفات، وعبادات، وأعمال خير، وغيرها، هي جيّدة ومُستَحسَنة، لكن لا يظنّنّ أحدٌ أبدًا أنّه بقوّته يستطيع أن يصبح قدّيسًا أو قدّيسة، بل بتسليم الذات إلى الله بطهارة القلب ونقاوة الفكر وحسن النيّة. كلّ هذا اختبره إيليّا النبيّ، رجل الإيمان، فكان في نظر الأجيال المتعاقبة في العهدين القديم والجديد نبيًّا استثنائيًّا في اختبار قداسة الله والتماهي معها[٣٩]، كما كان قدّيسَ الله، الذي بقداسته طبع حياة الكثيرين.

٤/٥ - الحقّ والعدل يُبنيان على الإيمان

النقطة الخامسة العظيمة في حياة هذا النبيّ القدّيس المتجرّد العابد والمؤمن، هي **مسألة الدفاع عن الحقّ والعدل**. نحن نعرف روايته مع آحاب الذي كان يملك قصرًا فخمًا، وكان فيه الكثير من العاج والأرائك والأسرّة، والطعام الفاخر، وكلّ ما يوفّر العيش في الرخاء والرفاه والبذخ. كان لديه غنى هائل، لكنّه كان يشتهي أن يضمّ إلى ذلك كلّه قطعة أرض تخصّ نابوت اليزرعيليّ ليوسّع ساحاته حول قصره.

كان رجلٌ من سهل يزرعيل، اسمه نابوت، يملك كرْمًا بجانب قصر آحاب ملك السامرة (١ مل ٢١: ١)، وهو فرح به، ليس لأنّه كان يؤمّن له المواسم الوفيرة، بل لأنّه كان ميراثًا من آبائه (آ ٣). غير أنّ آحاب كان يرغب في ضمّه الكرم إلى أملاكه، فتكلّم مع نابوت عارضًا عليه كرمًا أحسن من كرمه أو ثمنه فضّةً (آ ٢)، فكان جواب نابوت: «حاشا لي من قِبَل الربّ أن أعطيك ميراث آبائي!» (آ ٣). لماذا «حاشا لي»؟ لأنّ «هذا ميراث آبائه»؛ لكن من أين يأتي هذا الميراث الآبائيّ؟ هل من تعب نابوت؟ إنّه ميراثٌ من عند الربّ، فكيف يجوز له أن يتنازل عنه؟ لقد رفض نابوتُ طلبَ الملك، فدخل هذا الأخير إلى مخدعه حزينًا (آ ٤)، فقالت إيزابل: «لماذا روحك مكتئبة؟» (آ ٥). أخبرها الملك بما حصل، فوعدته بترتيب المسألة (آ ٧).

ذهبت إيزابل وأتت بشاهدَين كاذبَين، وأقامت نابوت أمام الشيوخ، فشهد الشاهدان

39 Jacques BRIEND, « Élie et l'expérience de Dieu », in Dieu dans l'Écriture, LD 150, Cerf, Paris, 1992, 13-39.

على نابوت بأنّه جدّف على الله وعلى الملك، فكانت النتيجة حكمًا برجم نابوت حتّى الموت (آ ١٠-١٣). كذب الكاذبون، ورجم الراجمون، فخلت الساحة أمام الملك وأمام إيزابل التي قالت للملك: «قم الآن ورِثِ أرض نابوت، فلقد مات» (آ ١٥).

إنّ ما حصل على يد إيزابل الكافرة وزوجها الضعيف والغبيّ، لَجسيم جدًّا. لكنّ إيليّا حاضر، وهو لن يهاب لا إيزابل القاتلة ولا الملك الطاغية؛ لماذا؟ لأنّ **إيليّا كان نبيّ العدل!** لكن مِن أين يأتي روح العدل هذا؟ مِن معرفة الحقّ؛ ومَن يعرف الحقّ؟ **المؤمن بالله.** إيمانه يتيح له أن يتبيّن الحقّ والحقيقة، فلا يعود بإمكانه أن يسكت عن الظلم؛ هكذا هو إيليّا النبيّ المؤمن القدّيس طبعًا، حامل سيف العدالة، الذي يفصل بين الحقّ والباطل. **العدل يَلْزَمُه بطولة**، ولا بطولة إلاّ بقوّة الإيمان؛ البطل مستعدّ دومًا للتضحية بحياته لأجل الحقّ والعدل؛ هذا ما اختبره إيليّا النبيّ وعاشه. لقد دافع إيليّا عن العدل لأنّه كان مملوءًا إيمانًا وحقًّا.

٥/٥ - الشجاعة والإقدام بفضل الإيمان

النقطة الثانية المهمّة هي متّصلة بالأولى. لقد مكّنَ الإيمانُ والصلاةُ إيليّا من أن يتجرّد، إذ وفّرَا له القدرة والقوّة على الثبات في وجه المضايقات والاضطهاد؛ المؤمن بالله هو من حيث هويّته قويّ، لا بل أقوى من الآخَرين؛ الضعف لا يتجانس ولا يتناسب ولا يتماشى بأيّة طريقة من الطرق مع مسيرة المؤمن. من كان بلا جرأة وبلا شجاعة وبلا إقدام فهو ليس مؤمنًا! تكلّم البابا بنديكتوس السادس عشر على هذه النقطة بوضوح قائلاً ما معناه: إنّ **ما ينقص الكنيسة اليوم هو الشجاعة** عند الكثيرين، وبالأخصّ عند من يتولّون الرئاسة في الكنيسة؛ تلزمهم الشجاعة! لكن من أين تأتي الشجاعة؟ لنسأل القدّيس بولس، مثلاً، من أين أتى بهذه الجرأة كلّها التي كان يتميّز بها، ولنسأل كذلك بطرس والرسل كافّةً، الذين قلبوا الدنيا رأسًا على عقب بشجاعتهم المبنيّة على إيمانهم الذي لا يتزعزع. لماذا نسأل العهد الجديد فقط؟ فلنطرح السؤال على إيليّا الذي واجه آحاب وإيزابلَ وحيدًا، وعلى إرميا الذي قاوم ووقف في وجه الملك وحيدًا، فأمسكوا به ورموه في البئر من حيث لا يستطيع أن يخرج؛ تركوه هناك ليموت؛ بالرغم من ذلك كلّه لم يسكت حتّى وهو مرميٌّ في البئر، لأنّه لم يَخْشَ الموت ولا استهاب الملك، بل بقي ثابتًا على شجاعته التي لم تتزعزع، لأنّ إيمانه كان مبنيًّا على الصخر. هذا الإيمان هو الذي

زيّن حياة إيليّا أيضًا؛ لكن من أين جاء بهذه الشجاعة؟ لقد قال: «حيٌّ الربّ» (٢ مل ٢: ١)؛ هذه الكلمة العابقة بالإيمان هي التي أعطته القدرة كلّها، إذ كان قد بلغ حدَّ التحرّرِ من الخوف ومن مهابة أهل هذا الدهر! **الشجاعة هي علامة الإيمان؛** الإقدام هو من صفات الأبطال والبطلات في تاريخ الكنيسة، والأبطال والبطلات في العهد القديم؛ فـ«**حيث لا إيمان لا شجاعة**». عندما فقد الرسل ثقتهم بيسوع تشتّتوا؛ بقي يوحنّا وحده يتبعه من بعيد، أمّا الرسل الباقون فقد هربوا كلّهم، بدءًا ببطرس الذي أنكر الربّ. لكن متى هربوا؟ ومتى أنكروا؟ عندما ضعف الإيمان وضعفت الثقة عندهم، الأمر الذي أدّى إلى فقدانهم الجرأة والشجاعة. لا أحد يستطيع أن يصمد ويجابه ويجاهد من أجل الربّ إلاّ إذا كان مملوءًا معرفةً وإيمانًا.

تفيدنا قصّة الشهداء المسابكيّين الرائعة أنّ القتلة هجموا عليهم بالسكاكين والعصيّ، وهدّدوهم بالموت إذا لم ينكروا يسوع المسيح؛ فلو أنكروه لَبَقَوا على قيد الحياة؛ لقد تشاورا في ما بينهم ثمّ أعلنوا للقتلة: «نحن وُلِدنا مسيحيّين، وعشنا مؤمنين، بالتالي نحن لن ننكر المسيح بل سنبقى راسخين في إيماننا به!»؛ وعندما ازداد المهاجمون تهديدًا لهم بالقتل، ازدادوا هم إصرارًا على موقفهم الإيمانيّ الصَلْب، فما كان من المهاجمين إلاّ أن ذبحوهم الواحد تلو الآخَر. لماذا لم يخطر ببال الشهداء الثلاثة أن يفضّلوا أن ينكروا المسيح لكي يبقوا على قيد الحياة، ويتوبوا في ما بعد عن نكرانهم ليسوع؟ ليس لدى الأبطال في الإيمان من أنصاف حلول، أو أنصاف مواقف! هذا ما ميّز إيليّا المؤمن أيضًا.

نستنتج ممّا تقدّم ونؤكّد أنّ الشجاعة هي ثمرة الإيمان. إنّ المجتمعات مليئة بالأشرار، وينخرها الفساد، وعلى كلّ المستويات؛ فإذا لم يوجد من يقول بشجاعة كلمة الفصل، إذا لم يوجد من يسائل، يظنّ الشرير أنّه على حقّ، ولن يجرؤ أحدٌ على الاقتراب منه. لنقرأ هنا ما جاء في سفر الجامعة: «إذ لم يكن القضاء على العمل الرديء لا يُجرَى سريعًا، امتلأت قلوب بني البشر جرأةً على فعل الشرّ» (٨: ١١).

بسبب فقدان الجرأة والشجاعة، وقبلهما التأمّل في الذات، خربت الأرض خرابًا، إذ لم يعد هناك من يتفوّه بكلمات الحقّ المنوِّرَة، والعدل الفاصل. **لا خوف عند مَن يؤمن بالله،** لا من العظماء الذين الناسَ يُخيفون ويُرهِبون، ولا من الأغنياء الذين ضمائرَ القضاةِ بالمال يشترون، ولا من المقتدرين الذين بهداياهم يُفسِدون، ولا من القوّات العسكريّة التي بدلاً من أن تحمي هي تُرعِبُ وتسحقُ مَن هم مستَضعفون وعن حماية أنفسهم هم عاجزون. في كلّ مرّة يخاف الملك والنبيّ والكاهن والقاضي، وهم خدّام الله والشعب

أساسًا، يصبحون كَلاَ شيء وكنفايات الدنيا، حتّى ولو كان لهم السلطان، وعلى الكراسي كانوا جالسين. الشجاعة إذًا هي نتيجة الإيمان، وهي بالتالي دواء للبشريّة وخلاص لها. هذا ما يمثّله بوضوح إيليّا النبيّ المؤمن الشجاع والمقدام بامتياز.

٦/٥ - قدرة إيليّا على أن يتوارى عن الأنظار

النقطة الإيمانيّة السادسة في حياة إيليّا النبيّ، هي القدرة على أن يتوارى عن الأنظار. سيحصل أمرٌ مماثل مع يسوع الذي، عندما جاؤوا ليختطفوه ليجعلوه ملكًا، فتوارى عنهم (رج يو ٦: ١٥). الخطر هنا هو على رسالة يسوع وليس على حياته. سيوصي يسوع تلاميذه قائلاً: «إذا اضطهدوكم في هذه المدينة فاهربوا إلى أخرى» (مت ١٠: ٢٣). على قدر ما كان إيليّا قويًّا ومستعدًّا للمواجهة بالكلمة، على قدر ذلك كان مدركًا أنّ ساعته لم تكن قد أتت بعد، وبالتالي كان لا بدّ من أن يتوارى إلى حين عندما يشتدّ الخطر على حياته، ليتمكّن بعد ذلك من أن يكمل المهمّة الموكلة إليه. إيليّا إذًا لم يتراجع ولم يهرب أبدًا، بالمعنى المعتاد للكلمة، بل توارى إلى وقت زوال الخطر ليعود ويواصل المهمّة. إنّ الحكمة والتواضع والشعور بالضعف هي مواكِبةٌ لفضيلة البطولة والشجاعة والإقدام المبنيّة على الإيمان؛ لا يمكن أحدًا أن يصل إلى هذه الفضيلة المزيّنة بالتواضع إلاّ من كان مملوءًا إيمانًا.

٧/٥- إيليّا صانع المعجزات بإيمانه

هناك جانبٌ هامّ من حياة إيليّا الإيمانيّة، هو العجائب والمعجزات. لا معجزة بين البشر إلاّ ويد الله وراءها؛ لا أحد يصنع العجائب والمعجزات والآيات إلاّ الله وحده ؛ الكلمة العبريّة في صيغة الجمع «نِفْلَأُوتْ» (נִפְלָאֹת)، من الفعل «فِلِأْ» (פלא)، تعني «العجائب» أو «الآيات»[٤٠]؛ وتُستَعمَل للكلام على الضربات العشر الموجّهَة ضدّ مصر، لأنّ الله وحده يستطيع أن يفعل ما حلّ بالمصريّين من ضربات، حتّى يتمكّن موسى من أن يخرجهم من

40 פלא, in Francis BROWN, *A Hebrew and English Lexicon of the Old Testament*, Clarendon Press, Oxford 1979, p. 810.

العبوديّة.

لقد صنع إيليّا الآيات والعجائب بقوّة الله وبإيمانه من أجل قضيّة عظيمة يجاهد ويخاطر بحياته من أجلها، ألا وهي أن يعي بنو إسرائيل أنّ يهوه هو إلهه وليس أيّ إله آخر. إنّ ما حصل معه يوم ذهب شمالاً إلى خارج أرض الميعاد، وتحديدًا إلى صرفت صيدا، حيث وجد أرملة تجمع حطبًا، فقال لها: «أعطيني لآكل، أعطيني لأشرب» (....)، إذ لم يكن لديه لا مأكل ولا مشرب ولا مكان يأوي إليه؛ لقد طلب ذلك من أرملة فقيرة، أرملة، لم يكن لها مُعين يوفّر لها الموادّ الغذائيّة والمياه والحماية؛ هي بالتالي امرأة مسكينة وأضعف الناس، لم تكن تملك إلاّ القليل من الدقيق والزيت لها ولابنها ليأكلاَ ما تبقّى ثمّ يموتان. لجأ إليها وطلب منها قطعة خبز، فقالت له: «ليس لديّ إلاّ القليل!» (١ مل ١٧: ١٢). فقال لها: «أدخلي وأعدّي لي أوّلاً وبعدها لك ولابنك، ولا تخافي» (آ ١٣). المهمّ ليس فقط الأعجوبة التي صنعها إيليّا، بل ما وجده من إيمان عند هذه المرأة الغريبة التي آمنت بما قاله لها، وإلاّ لما ذهبت وأعدّت، كما أمرها أن تفعل دون أن تضيف كلمة واحدة، بل لكانت رفضت وأخرجته من منزلها. دخلت وعجنت وخبزت وقدّمت له ليأكل، قبل أن تأكل هي وابنها. جرّة الدقيق لم تفرغ، وجرّة الزيت لم تنقص (آ ١٦). إنّ هذه الأعجوبة هي بالتأكيد صُنْعُ الله من خلال إيليّا رَجُلِ الإيمان. إلى هذه المعجزة أُضيفَت أخرى أقوى من الأولى، إذ أنّه، بعد أيّام، مرض ابن هذه المرأة ومات، فقالت له: «يا نبيّ الله، لماذا جئت إلى هنا؟ ألتميتَ ابني وحيدي؟» (آ ١٨)؛ فقال لها: أعطيني ابنكِ» (آ ١٩). مرّةً ثانية صدّقته لأنّها آمنت أنّه رَجُلُ الله. سجد إيليّا لله، وصلى على الصبيّ بقلبٍ مفعمٍ بإيمانه المعهود وقال: «يا ربّ، لترجع نفس هذا الولد إلى جوفه»، فعادت روح الصبيّ إليه (آ ٢١-٢٢).

هاتان الأعجوبتان العظيمتان اللتان حدثتَا في بيت الأرملة، أبرزتَا صورة امرأة غريبة، آمنت بالإله الذي يؤمن به إيليّا؛ فسلّمت قرارها وحياتَها وابنَها إلى نبيّ الله، فإذا بإيمان إيليّا ينتقل إلى قلبها، فصارت هي أيضًا، وعلى خطى نبيِّ الإيمان، نموذجًا لاهتداء غير اليهود إلى الإيمان بالله.

٦ - إيليّا العظيم في إيمانه حيّ لدى الله

وأودّ أن أنهي الصورة واللوحة الأخيرة عن هذا الرجل الذي، بقدر ما كان مزيّنًا بهذه الفضائل والصفات الإيمانيّة الرائعة في حياته، ميّزه الله عن سائر الأنبياء بأن رفعه حيًّا إلى

السماء، حسبما جاء في تقليد الشعب العبريّ، أي أنّ **إيليّا لم يمت، بل خُطِف إلى السماء** (٢ مل ٢: ١١)، ومن قبله أخنوخ (تك ٥: ٢٤)، مع الإشارة إلى أنّ الربّ يسوع يقول: «لم يصعد أَحدٌ إِلى السَّماءِ إِلاَّ الَّذي نَزَلَ مِنَ السَّماءِ، ابنُ الإِنسانِ الَّذي هو في السَّماءِ» (يو ٣: ١٣). يمكن هذا الحدث أن يكون في نظرنا غير قابل للتصديق، ولكنّ عينَا المؤمن المتفتّحتان بالإيمان، تريان ما لا يراه الأناس العاديّون. بالتأكيد، ليس عند الله أمرٌ مستحيل (لو ١: ٣٧)، وبالتالي ليس مستحيلاً أن يُرفع إيليّا حيًّا على مركبة من نار. لقد **كان إيليّا عظيمًا جدًّا، فرفعه الله**، وكأنّه يصوّر مسبقًا ارتفاع الربّ يسوع حيًّا إلى السماء بعد قيامته من بين الأموات. هكذا يجذب الله إليه من يحبّهم، ويرفعهم إلى ملكوته السماويّ ليكونوا أبدًا في حضرته. لذا اعتبر اليهود أنّ إيليّا ما زال حيًّا في السماء، وسيأتي ثانية: «هأنذا أرسل إليكم إيليّا النبيّ قبل مجيءِ يومِ الربّ، اليوم العظيم والمخوف، فيرُدُّ قلبَ الآباءِ على الأبناء، وقلبَ الأبناءِ على آبائهم، لئلاّ آتيَ وأضربَ الأرضَ بلعن» (ملا ٤: ٥، ٦). عندما بشّر الملاكُ بميلاد يوحنّا قال لزكريا عن يوحنّا: «يتقدّم أمامه بروحٍ إيليّا وقوّته ليردّ قلوب الآباء إلى الأبناء، والعصاة إلى فكر الأبرار، لكي يهيّئ للربّ شعبًا مستعدًّا» (لو ١: ١٧). عندما ظهر يوحنّا المعمدان فرح اليهود، لأنّهم اعتبروا أنّ أيليّا الحيّ قد رجع، ويعني مجيئه بالنسبة إليهم أنّ مجيء المسيح أيضًا قد قرب. يأتي إيليّا الحيّ كي يردّ الناس إلى طريق الخير؛ لذلك أُعطِيَ هذه الكرامة العظيمة في حدث التجلّي عندما صعد يسوع إلى الجبل، ومعه يعقوب وبطرس ويوحنّا، وظهر له موسى وإيليّا (مت ١٧: ٤)، رَجُلاَ الإيمان بالله والأمانة له، موسى ممثّل الشريعة، وإيليّا ممثّل النبوءة؛ كان هذا إكرامًا كبيرًا لهذين الرَجُلَين المتكاملَين والمتشابهَين بأمور كثيرة، اللذَين أُعطيَا مجدًا عظيمًا بأن يظهرَا عند تجلّي يسوع على مرأى الرسل الثلاثة.

خاتمة

هذه اللوحة المتنوّعة الألوان التي رسمناها عن إيليّا المزيّن بالإيمان وبالثبات فيه، هي صورة حقيقيّة ومعبّرة إلى أقصى حدّ؛ يدعونا مثاله إلى الإيمان وإلى التعمّق فيه، لننال أن نلتقيه ونصعد على مثاله على مركبة من نار إلى حيث ربّنا جالس في المجد.

مراجع

شهوان أيوب، «توبيخ ملاخي للكهنة»، **مجلّة بيبليا** ٤٥ (٢٠٠٩) ٣٧-٥٧.

الفغالي بولس، **المحيط الجامع في الكتاب المقدّس والشرق القديم**، المكتبة البولسيّة، جونيه - لبنان، ٢٠٠٣.

_____، **يعقوب السروجيّ، عظات حول النبيّ إيليّا**، منشورات الجامعة الأنطونيّة، ينابيع الإيمان، ٥، جونية - لبنان، ٢٠٠٣.

الكتاب المقدّس، دار المشرق، بيروت، ١٩٨٨.

الكتاب المقدّس، العهد الجديد - إونجليون، كلّيّة اللاهوت الحبريّة، جامعة الروح القدس، الكسليك، ١٩٩٢.

BRIEND Jacques, « Élie et l'expérience de Dieu », in *Dieu dans l'Écriture*, LD 150, Cerf, Paris, 1992.

BROWN Francis, *A Hebrew and English Lexicon of the Old Testament*, Clarendon Press, Oxford 1979.

CARLSON R.A., « Élie À l'Horeb », in *Vetus Testamentum*, 19, n° 4, (1969) 416-439.

CARIOU-CHARTON Sylvain, « La conversation sur la montagne », in *Christus*, tome 51, n° 203 (2004) 292-300.

PICHON Christophe, « Un parallèle entre Jésus, Jean-Baptiste et Élie », in *Revue des Sciences religieuses*, 82, n° 4, (2008) 497-516.

STEIN Edith, La *spiritualité du Carme*, « Ouest France », 1936.